تقنيات الكتابة في الرحلة المغربية- ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس لمحمد علي برادة أنموذجا

Writing thechnique in the moroccan voyage- prompt impressions in a voyage of Muhammad Ali Berrada is a model

حكيمة بوقرومة[1]

[1] كلية الآداب واللغات جامعة المسيلة، (الجزائر)hakima1200@gmail.com

تاريخ إرسال المقال: 28 / 02/ 2019 تاريخ قبول المقال: 2021/01/19 تاريخ نشر المقال : مارس 2021

الملخص

تتمحور الدّراسة حول رحلة سياحية قام بها كاتبها" محمّد علي برادة" إلى منطقة مكناس سايس، والتي تنتمي إلى المغرب الأوسط أو المغرب الأطلسي، حيث تتكامل فيها عناصر الرّحلة السياحية الاستطلاعية والاستكشافية، بالإضافة إلى الطّابع الثقافي المتعلّق بميول الكاتب الثقافية المتنوعة، ويمثل عنوان الرّحلة نصا مصغرا للنص الكبير، مع براعة اختيار الألفاظ المناسبة، التي تعدّ اختصارا لنّص الرّحلة، كما تتميز الرّحلة بالتّطابق بين السارد والكاتب باستعمال ضمير المتكلّم، جاء الوصف ممزوجا بالسّرد.، حيث قدّم الكاتب جملة من المرئيات من خلال عيون نصية، مع تحول نص الرّحلة إلى طبقات من الرّؤية البصرية، دون أن ننسى الحوار الذي يظهر في المباحثات التي أجراها الكاتب مع الناس الذين التقاهم في رحلته، مما يعني أنّ هذه الرّحلة عالــجت المكونات الــسردية بمختلف مســتوياتها دون إهــمال الرّحلة ومضامينها التي برزت من خــلال الصـياغة السّردية .

الكلمات المفتاحية: الّرحلة- السرد-السارد- الوصف- الحوار

Abstract:

The study is based on a tourist trip by the writer «Mohamed Ali Berrada» to the Meknes Saïs region, which belongs to Central Morocco or the Atlantic Morocco, where the elements of the exploratory and exploratory journey are integrated, in addition to the cultural nature of the diverse cultural writer's tendencies. A short text of the big text, with the ability to choose the appropriate words, which is short for the text of the trip, and the journey is characterized by a correspondence between the writer and the narrateur using the conscience of the speaker, and the description is mixed with narration, where the author made a number of visuals through text eyes, Journey to the layers of visual vision, without forgetting the dialogue that appears in the talks held by the writer with the people whom he met on his journey, which means that this trip addressed the narrative components at various levels without neglecting the journey and the implications that emerged through the narrative drafting.

Key words: Journey - Narration - Narrator - Description – Dialogue.

المؤلف المرسل: حكيمة بوقروم, الإيميل:hakima1200@gmail.com

المقدمة

تعدّ الرّحلة فضاءً رحبا للمتعة والمعرفة، انتشرت في كل زمان ومكان، وقد وردت في معظم النصوص والكتابات المختلفة، تختفي بين طياتها التجارب الإنسانية بمختلف مظاهرها، ونص الرحلة هو « نص سابق ولاحق: سابق لأنه كان وراء كل النصوص، نسغها الدائم، وهو نص لاحق، من حيث تعدد أنماطه وعناصره في المكتوب والمسموع والمرئي والمرسوم».[1]

وبقدر ما كانت الرحلة ميدانا للمغامرة الأنطولوجية، فإنها كانت أيضا ميدانا خصبا لمغامرة الكتابة التي ترسخ شكلها عبر تراكمات النص، دون أن يمنع ذلك من تنوع وسائل الإبلاغ في الرحلة على اختلاف أنواعها سواء كانت سفارية، أو حجازية، أو سياحية، أو مزارية، أو علمية،أو استكشافية ميدانية،.. ومن هنا لم يكن هدفنا من هذه الدراسة الحديث عن محتويات ومضامين الرحلة المغربية، بقدر ما كانت محاورة الجانب البنائي للرحلة.

والرّحلة كتابة ملتبسة، سواء على مستوى الهوية الأجناسية (Générique)، أو على مستوى محاورتها في سياق نظرية الأدب لأجناس أدبية وغير أدبية، نشأت من صلب الرحلة بصيغ جديدة وأنماط كتابية وشفاهية متعددة، فمن ناحية المستوى الأجناسي، نجد أن الرحلة نص «غير واضح الحدود، يمكن أن يسكب فيه أي شيء: التوسيعات العلمية وفهارس المتاحف وحكايات الغرام... فهو يمكن أن يكون كتابا، مليئا بالعالم أو دراسة نفسية، أو بكل بساطة قصة حب أو كل ذلك معا»[2]، إنها إشكالية التجنيس، أو التصنيف، وبالتالي إشكالية التسمية، أما على المستوى الحواري– أي حوار الرحلة مع الأجناس الأدبية وغير الأدبية–، «فالالتباس مرده إلى علاقات المدّ والجزر بين مختلف الأنواع الأدبية وغير الأدبية الواردة في الرحلة، في سياق المكون المهيمن على النص»[3]، وبالتالي هناك إشكالية « الخلط بين الأجناس و أسماء الأجناس»[4]، وهذا ما دام العنصر المهيمن –عنصر السفر والارتحال– قد لا يلعب دورا بنائيا يحكم محدوديته في النص مقطعيا أو فضائيا، فضلا عن العناصر المعجمية والتركيبية التي يتضمنها نص السفر ودلالاته.

الرّحلة إذن سفر واقعي أو متخيل يسمح بالسفر عبر المكان والأجناس والأنساق والكلمات، حوارا وتحويلا وتفسيرا.[5]

ولا يقتصر الالتباس في الرحلة على المستويين السابقين، بل إن الأمر يتعدّى ذلك إلى بعض الخطابات المساوقة للرحلة وفق منظورين اثنين: [6]

1– منظور يقصر أدبية الرحلة على خصائص بلاغية احتوت الكثير من الملامح الأدبية، والنواحي الجمالية المتمثلة في اختيار اللفظ، وحسن الأسلوب، وجمال التعبير.

2– منظور يجعل من الرحلة نصا مساعدا لنص مركزي غائب، يستفيد من فضاء الرحلة، وإمكانات السفر المساعدة على تقديم مختلف السياقات المعرفية والحضارية، فضلا عن المضامين الأدبية التي لا تتعدى المحتوى الشعري والنثري، دون أن تنظر في المستوى السردي وخصائصه.

والمنظوران معا يلتقتان إلى محتوى الرحلة، وما تحققه من غايات وأهداف، ومن ناحية أخرى يمكن أن نلمس تجذّر الرّحلة في أرضية الخطاب على اختلاف أشكاله وأنماطه وموضوعاته، هكذا انتشرت الرّحلة في نصوص عديدة سواء كانت شعرا أو نثرا، نصا دينيا أو دنيويا، ترجمة ذاتية أو غيرية، مذكرات أو انطباعات جغرافيين ومغامرين، متخيل صوفية ومريدين، أو مرويات وخرافات، فهارس وكتب طبقات، سير وأخبار، طرائف شطار وتعاليم حكماء.

فالرّحلة إذن تنتشر في الكلام والكتابة، أو في الثقافة الشعبية والثقافة العامة متّخذة من طقس السفر –المكون المركزي في الرحلة– مهادا محفزا على اكتشاف العالم من جهة، وابتداع طرائق الكتابة من جهة ثانية، فالسفر يسمح بالتصنيف، وهو في الوقت ذاته، يمكننا من تلمس خصائص الكتابة، وما دامت الرحلة نوعا أدبيا « يقلّص دور المصـــادفة، ويقدم لنا ، بقدر كبير، قواعد إنـــتاج النص وقواعد تلقيه في آن معا».[7]

وما دام حديثنا عن الرحلة المغربية، تجدر الإشارة إلى أن هذه الأخيرة تحقق أدبيتها، وبالتالي تميزها الأجناسي من جملة من العناصر، تتمثل فيما يلي[8]

أ– من خلال التراكم التاريخي للنص، انطلاقا من أقدم رحلة وصلتنا إلى مرحلة النتاج الحالي.

ب– في القرن التاسع عشر، شكّل نص "ابن بطوطة" (العصر المريني) نصا تأسيسيا اكتملت من خلاله خصائص الجنس الأدبي متجاوزا –دون إحداث قطيعة نهائية– أدب المسالك والممالك، مركزا على تجربة السفر في أفقها الذاتي، مؤلفا بين طرائق الكتابة، وتعدد الموضوعات المتأرجحة بين الواقعي والعجائبي، الإثنوغرافي واليومي، التاريخي والجغرافي، الأتوبيوغرافي والبيوغرافي، بين سيرة الذات و سيرة المكان.

ج– ارتبطت الأدبية أيضا بطبيعة البنية المهيمنة في النص، وهي بنية السفر المشتركة في معظم النصوص ماديا أو مجازيا، تتحول في الرّحلة إلى بنية جاذبة (مهيمنة) لباقي البنى من جهة، وإلى بنية تفرز الخصائص النوعية في الكتابة من جهة ثانية.

اشتهر المغاربة أكثر من غيرهم بكتابة رحلاتهم منذ القديم، ولا يزال الكثير منهم إلى يومنا هذا يطلعوننا على نماذج متنوعة تختلف باختلاف نوع الرحلة، فهم مولعون أكثر من غيرهم بتسجيل رحلاتهم التي تمتلك خصوصيات مميزة، بل ارتبطت الرحلة بهوية الأشخاص، فالتصقت أسماؤهم بها عبر التاريخ، كرحلات "ابن بطوطة"، "رحلة الغيغائي"، "رحلة التامراوي"، رحلات "شعيب حليفي"،... بعضهم برزوا إلى الساحة وكتبت حولهم أعمالا نقدية كثيرة، وبعضهم لا يزال مغمورا، ولهذا ارتأينا في دراستنا هذه أن نكشف الغطاء عن تلك الشخصيات المغربية التي لم تنل الشهرة بعد، قصد التعريف بها وبما تكتبه في هذا المجال، وإبرازها إلى الوجود لتنال حظها كما ناله السابقون، ويعد الكاتب "محمد علي برادة" أحد الكُتاب المغاربة المولعين بتسجيل رحلاتهم بدقة وببراعة نادرة، وقد اخترنا إحدى رحلاته الأخيرة التي سجلها عند زيارته مؤخرا لجهة أو مدينة مكـــناس ونواحيها عنوانها "ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس".

"محمد علي برادة" مهندس معادن، بحكم تكوينه المستمر سافر إلى العديد من البلدان الأوروبية والأسيوية والعربية، و هو عضو نشيط في العديد من جمعيات المجتمع المدني المغربي، ومستشار جمعية اللسانيات بالمغرب، وعضو اللجنة الوطنية لتخطيط البحث العلمي والتقني، المخطط الخماسي بالرباط، اشتغل منذ حصوله على التقاعد المبكر سنة 2005 مع المجتمع المدني لإنجاز أعمال تطوعية اجتماعية ثقافية تربوية، على شكل محاضرات في مواضيع علمية ثقافية، تهدف إلى تربية الناشئة على التفكير المنطقي السليم خدمة للتنمية المستدامة، و نشرت له مقالات في صحف وطنية و مجلات متخصّصة، وله اهتمامات علمية وأدبية و فنية متنوعة.

1- قراءة في موضوع الرحلة و عنوانها:

1-1- نمط الرّحلة: سياحية استطلاعية استكشافية:

قام "محمد علي برادة" برحلة سياحية إلى منطقة "مكناس سايس"، والتي تنتمي إلى ما يعرف عند الجغرافيين بالمغرب الأوسط، أو المغرب الأطلسي، وهي منطقة تفصل بين مجالين مختلفين، هما: المجال الصحراوي الإفريقي ذو المناخ الجاف، والمجال المتوسطي، نسبة إلى مناخ البحر الأبيض المتوسط. وهضبة سايس هي عبارة عن سهل وأراضٍ خصبة، تتميز بمناخ معتدل، نتيجة تعرضها لتيارات هوائية رطبة، تتميز هذه المنطقة بقربها من الأحواض المائية الكبرى لسبو وسايس، المحاذية للأطلس المتوسط، وببنية جيولوجية، حيث تحتوي على طبقات صخرية صلصالية أو كلسية، وعلى أراضٍ زراعية خصبة. كل هذا جعل منطقة "مكناس سايس" منطقة زراعية في شقيها النباتي والحيواني، أما سكانها فمعظمهم قرويون، تتنوع لهجاتهم بين العربية والأمازيغية، وعرفت هذه المنطقة عبر التاريخ، قدوم هجرات بشرية قادمة من الشرق، أو الشمال أو الجنوب، مع تعاقب الحضارات منذ عهد الفينيقيين إلى عهد الإسلام، مرورا بعصر الرومان والقرطاجنيين[9]، وانطلاقا من هذه اللمحة الموجزة ننطلق في دراسة الكشف عن الرحلة بعد أن عرفنا أهمية هذه المنطقة السياحية الجميلة.

ينبغي في البداية الإشارة إلى التكامل بين عناصر الرحلة السياحية الاستطلاعية والاستكشافية، «حيث التداخل العضوي بين الغاية السياحية والرغبة الاستطلاعية بالخصوص»[10]، ويبدو من الصعب في معظم هذه الرحلات الفصل التام بين سياحية خالصة واستطلاعية بحتة، «وهذا لا ينفي بطبيعة الحال وجود نصوص قد يغلب عليها الإطار العام للطابع السياحي مثلا، كما لا ينفي وجود أخرى قد يغلب عليها الطابع الاستطلاعي».[11]

والرّحلة التي بين أيدينا من نصوص الرحلة التي يغلب عليها الشكل الاستطلاعي، فصاحبها يذكر في البداية أنّ رحلته كان هدفها استكشاف الجغرافية الطبيعية والبشرية والاطلاع على أحوال منطقة "مكناس سايس"، وطريقة عيش سكانها، مقارنا بين الماضي والحاضر، يقول: «في البداية أود أن أشير إلى أن رحلتي في الأسبوع الثاني من دجنبر 2014 إلى جهة مكناس سايس كانت موفقة على أكثر من صعيد، سواء فيما يتعلق بالجغرافيا الطبيعية أو الجغرافيا البشرية»[12]، مما يعني أنّ الرحلة تجمع بين

طياتها حب السفر من أجل الاستجمام وحب الاستطلاع والاستكشاف، ومن جهة أخرى قصد اكتساب المعارف الجديدة، مما يعني الجمع بين المتعة والفائدة، وهذا ما يظهر في قول الكاتب « فبالإضافة إلى استنشاقي الهواء النقي في هضاب سايس، وبالمرتفعات الجبلية لمقدمة الريف، والهدوء الذي أنعمت به خلال النهار أو الليل في تلك المرتفعات، والماء العذب للعديد من المواقع التي زرتها، والتغذية الجيدة التي تناولنها، فإني اكتسبت علاقات صداقة إنسانية جديدة، وتقوت صداقاتي القديمة هناك، فالمعارف الجديدة التي اكتسبتها حدثت من خلال الأحاديث المفيدة مع الأشخاص الذين صادفتهم، أو ما عاينته من مشاهد ومناظر طبيعية».[13]

إنّ الهدف السياحي المتعلق بالمتعة نجده يتضاءل تدريجيا أمام الاهتمام بالجانب الاستطلاعي الاستكشافي، ممزوجا بالطابع الثقافي لميول الكاتب الثقافية المتنوعة، حيث أعلن رغبته في الاطلاع على الجغرافيا الطبيعية والبشرية، مشيرا إلى أن «جهة مكناس يمكن، بحسب بعض الجغرافيين، أن تشكل صلة وصل جغرافية–اقتصادية بين الشرق والغرب، ذات نفع كبير على البلدان المغاربية، في حالة تجسيد مشروع المغرب العربي الكبير، طبقا لروح اتفاقية مراكش التاريخية لسنة 1989»[14]، مما يعني أن هذه المنطقة تمثل موقعا استراتيجيا، ينفتح على مساحات خضراء على الهضاب و المرتفعات، حيث تتراءى من خلال ذلك مناظر خلابة ومساحات زراعية شاسعة. بالإضافة إلى زيارة "المدرسة الوطنية للفلاحة"، ومباحثاته مع طلبتها المهندسين، تم التعرض من خلال ذلك إلى جملة من المواضيع التي « تهمّ آفاق التعاون المشترك بين مختلف الأفواج المتعاقبة السابقة، والأفواج اللاحقة، قصد نقل الخبرات والتجارب، من الأولى إلى الثانية، من خلال لقاءات مفتوحة بينهما، في إطار الأنشطة الثقافية لجمعية الطلبة المنهدسين والنوادي التابعة لها بتلك المدرسة».[15]

هذا، بالإضافة إلى الحوار الذي أجراه مع رجل مسن من تلك المنطقة، مقارنا بين الوضعية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الأجيال السابقة التي عايشها في عصر تميز بالندرة والفاقة، والأجيال اللاّحقة التي تعيش في العصر الحاضر الذي هو عصر الوفرة، مع الإشارة إلى الظروف المادية الصعبة التي عاشتها الأجيال السابقة، كضعف التجهيزات والبنيات التحتية، وانتشار بعض الأمراض المعدية، ومقابل كل ذلك كان الناس يعيشون في وئام وسعادة، يسود بينهم الصدق والاحترام والتضامن [16]، ومن هذا المنطلق أعطى الكاتب انطباعا جيدا عن المواطنين المغاربة القاطنين في تلك المنطقة في وقت سابق، فكانوا مثالا للتكافل والتودد والتراحم، والسعي في إنجاز المشاريع الخيرية، مما أعطى انطباعا ومثالا جيدا عن هذا البلد من حيث العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، خاصة بشأن المحاصيل الزراعية وطريقة التعامل معها في سنوات الفاقة والقحط.

وهكذا عكست هذه الرحلة بعض الجوانب من الحياة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في منطقة "مكناس سايس" المغربية، من خلال جوانب مهمة سعى الكاتب للإشـــادة بها، مبرزا الجانب الحضاري في محيطه العام.

إنّ الكاتب "محمد علي برادة" وهو ينشد السياحة في نفسه، تطلع إلى المعرفة يغذيها حب الاطلاع على كل ما تلتقطه عيناه و أذناه، منذ أول محطة انطلقت منها الرحلة التي رافقه فيها صديقه المهندس الزراعي "محمد العلالي" على متن السيارة كما أشار الكاتب إلى ذلك في بداية الرحلة.

إن الرحلة تقدم صورة عامة عن وجه من وجوه المغرب الأقصى، سواء من حيث المظاهر الطبيعية الخلابة التي تعطي صورة عن الطبيعة في تلك المناطق، أو من حيث الناس الذين اختلط بهم، أو التقاهم في مكان ما، فيسمع من ذوي التجربة حقيقة تلك المجتمعات، وقد خرج بحكم تقييمي من خلال المعاينة الميدانية للمواقع التي زارها، أو من خلال مباحثات قام بها مع أشخاص صادفهم في طريقه، مدعما كل ذلك بمعلومات كان قد قرأها في كتاب بعنوان: "المغرب مقاربة جديدة في الجغرافية المجالية" لمحمد بريان، وقد ربط معلومات الكتاب بما استخلصه من رحلته الخاصة، مقارنا بين جغرافية المغرب الأقصى في وقت سابق يمتد إلى ما قبل دخول الاستعمار الفرنسي إلى هذا البلد سنة 1912، وبين ما رآه بنفسه وما عاينه أثناء رحلته، فتوصل إلى نقطة مهمة ، وهي أنّ المساحات الزراعية تركزت في أيدي فئات اجتماعية قليلة على حساب الأغلبية من فئات المجتمع، فمضى الكاتب يعبّر عما شاهده من مناظر جميلة وما اكتسبه من معارف جديدة، اطّلع فيها في الوقت نفسه بالخصوص على معالم كان يعرفها في كتب جغرافية المغرب، وتطلّع إلى مشاهدتها فرآها أمام عينيه وراح يقارن بين ما رآه وما قرأه.

ومن خلال ذلك، تتفاعل لدى الكاتب عناصر المتعة السياحية مع عناصر المعرفة والاطلاع، خاصة وهو يتحدث عن التعاونيات الفلاحية والتنمية الزراعية، وبرامج إعادة الهيكلة الاقتصادية التي أشرف عليها البنك الدولي، وبرنامج المخطط الأخضر، « الذي سيحول الفلاحين الصغار إلى شبه مأجورين لدى المستثمر الرأسمالي الكبير الوطني أو الأجنبي الذي يجلب المال والتكنولوجيا لاستثمار التكتل الزراعي»[17]، بالإضافة إلى اقتراح جملة من الحلول من أجل المصلحة العامة، و«يبقى أفضل حلّ بالنسبة للقضاء على الفقر لدى معظم الفلاحين الصغار، هو تكتلهم في بنيات استثمارية زراعية متوسطة الحجم في شكل تعاونيات، تدار بشكل ديمقراطي، يتقاسمون مردود إنتاجها، بحسب نسبة مساهمة كل فرد منها في جهد العمل الذي يبذله»[18]، مشيرا في الأخير إلى أنه في حالة نجاح تلك السياسات الفلاحية المستدامة، فإن العديد من المشاكل و التحديات الثانوية سوف تجد طريقها إلى الحل الصائب، وسوف يتحقق الاكتفاء الغذائي الذاتي.

2.1- قراءة في عنوان الرّحلة:

يعدّ العنوان عتبة هامة تقود إلى عالم النّص وتسعى إلى فك رموزه، وهو مرجع يتضمّن بداخله العلامة والرّمز وتكثيف المعنى، يحاول الكاتب من خلاله أن يبث مقاصده، بوصفه النّواة المتحرّكة التي استعملها في حياكة نسيجه النّصي، ولذلك كان العنوان مفتاحا أساسيا يتسلّح به القارئ للخوض في عالم النّص، قصد استيفاء الغرض والتّأويل[19]، إنّه يقدّم لنا معرفة كبرى لضبط انسجام النّص، وفهم ما غمض منه[20].

ويظلّ العنوان خاضعا لاحتمالات دلالية مختلفة لا تتضح إلا من خلال القراءة التأويلية، ولا ينتهي عند دلالة معيّنة، وإنّما يفتح النّص على دلالات مختلفة ومعارف متنوعة، ويحيل إلى معارف وإيديولوجيات مختلفة، ويمكن أن نعتبر العنوان هو الأصل والنّص هو الفرع.

والقارئ هو من يجعل العنوان أصليا وليس الكاتب، ذلك أنّ العنوان هو الذّي يفتح الدّلالات الكلية للنّص والتي تكون بمثابة مصباح يضيء له المناطق المعتّمة في النّص. [21]

و"محمد علي برادة" من الكُتّاب البارعين الذين أتقنوا اختيار عناوين رحلاتهم، وحين نتأمل في عنوان الرحلة "ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس"، سيجعلنا نقف عنده وقوفا مطولا بتفكيك مصطلحاته، ومحاولة الربط بينها، كونه يمثل نصا مصغرا للنص الكبير، فبالإضافة إلى أن العنوان يمثل "إشارة شكلية" للنص، لأنّه يميز نوع النص وجنسه عن باقي الأجناس الأخرى من حيث هي قصة أو رواية، أو شعر أو مسرحية[22]، إذ يتضمن العنوان نوع الجنس الأدبي الذي هو "الرحلة" (ارتسامات رحلة عابرة)، كذلك نجد أن الكاتب قد برع في اختيار الألفاظ المناسبة للعنوان، والتي تعد اختصارا لنص الرحلة، ومن جهة أخرى نلاحظ أن الكاتب يحسن التلاعب بالألفاظ، كونه يجمع بين لفظين متناقضين في العنوان، وهما: "ارتسامات" و"عابر"، فالواضح أن الارتسام يتعلق بشيء يظلّ عالقا في أذهاننا، كأنه رسم ارتسم في الذاكرة ولا يمكنه أن يُمحى ولا يزول، بينما "العابر" هو لحظة من اللحظات التي يمر بها الإنسان ولا يمكنها أن تستمر، وبالجمع بين الارتسام والعابر يكون الكاتب قد تفنن في التلاعب بالألفاظ لجعل المتلقي يقدم على الولوج إلى عتبة العنوان التي هي عتبة مهمة وأساسية في مثل هذا التحليل، وحيث أن رحلة الكاتب كانت إحدى رحلاته العابرة التي تعوّد أن يقوم بها، إلا أنها صارت خالدة بالنسبة إليه كونها ارتسمت في ذهنه بكل جزئياتها وتفاصيلها التي عبر عنها، والدليل على ذلك أنه أراد أن يخلدها رغم أنها عابرة، ويظهر ذلك في التقاط الصور التي تخلد تلك الرحلة وذكرياتها، في قوله: «وقد التقطت لنا بعض الصور التي تخلد ذكرى هاته الرحلة».[23]

هكذا نعتبر هذا العنوان محطة حاسمة توقف عندها الكاتب بعد ربط بين عدة ألفاظ جامعة لكل ما ستقدمه هذه الرحلة، فكان جذابا ومطابقا للمحتوى، ويغلب على هذا العنوان صوتان بارزان، وهما (السين والراء)، فالسين صوت مهموس، و«الهمس هو ضعف التصويت مع جري النفس عندالنطق بالحرف لضعف الاعتماد على المخرج».[24]

تطغى دلالة الهمس في صوت "السين" على عنوان الرحلة (ارتسامات، مكناس، سايس)، وخروج صوت السين يكون عادة برفق ورقة، مثلما هو الهمس كلام برفق ورقّة.

كما يطغى كذلك على هذا العنوان صوت الراء (ارتسامات، رحلة، عابرة)، ويحدث هذا الصوت « تتابع طرقات طرف اللسان على اللثة تتابعا سريعا، ومن هنا كانت تسمية هذا الصوت المكرر»[25]، ولقد تكرر حرف الراء ثلاث مرات في العنوان، مما يحيل إلى كثرة الأحداث والمشاهدات التي سيحكيها لنا الكاتب في هذه الرحلة، وسيختلف في النص بتغير السـياق الذي يرد فيه، بغض النـظر عن صفة التكرار

التي تلتصق بهذا الحرف.

ومن جهة أخرى ورد استعمال العنوان جملة اسمية، ولم تتضمن أي فعل، تبدأ باسم نكرة وتستمر على نفس الوتيرة، وهذه الظاهرة كثيرة الحدوث في لغة العرب، ذلك أن الاسم «إذا كان سمة لشيء ما فإنه إلى التنكير أقرب، إذ يدلنا الاسم على شيء يكتنفه نوع من الإبهام، ثم يكون الكشف والتعريف بعد ذلك يذكر الخصائص والسمات، ومن ثم كانت النكرة أخف على الذوق العربي السليم من المعرفة».[26]

ثم أن النكرة أصل والمعرفة فرع، والأصل أشد تمكنا من الفرع، لذلك يميل أكثر المتكلمين إلى النكرة دون المعرفة، يقول سيبويه « واعلم أن النكرة أخف عليهم من المعرفة، وهي أشد تمكنا، لأن النكرة أول ثم يدخل عليها ما تعرف به، فمن ثم أكثر الكلام ينصرف إلى النكرة».[27]

والعنوان سمة للنص أو اسم له، فكان لا بد للكاتب أن يأتي به نكرة، ليضطر القارئ بعدها إلى قراءة النص لاستجلاء الغموض الذي يكتنف هذه النكرة.

يحمل عنوان هذه الرحلة، وظيفة الإعلان عن المحتوى، بناء على تعريف "ليوهوك" (Leo Hoek) بأنه: مجموع العلامات اللسانية التي يمكن أن تدرج على رأس النّص لتحدده وتدل على محتواه العام وتعرّف الجمهور بقراءته[28]، حيث أن العنوان يلخص الرحلة التي قام بها الكاتب إلى "مكناس سايس"، ووصف للجغرافية الطبيعية والبشرية، هذا العنوان له علاقة خاصة بالنص، هي علاقة مجمل بمفصل، حيث يرد مجملا، ثم يأتي التفصيل في النص، وهذا يعني أن العنوان يحمل وظيفة اختزالية، فالكاتب يختزل نص الرحلة في العنوان، نتيجة كثافة دلالاته، إذ بإمكان القارئ أن يتنبأ بمحتوى المعنى النصي من خلال العنوان، «فالعنوان يختزل النص ويقوله دفعة واحدة»[29]، أي أنه يلخص النص ويختصر خطوطه العريضة.

2- التقنيات الموظفة في الرحلة:

1.2- السرد و السارد:

تتميز الرّحلة عادة بالتطابق بين السارد و الكاتب، فكاتب الرحلة (المؤلف) هو ساردها[30]، والتطابق بين السارد والكاتب (المؤلف)، ينتج تطابقا آخر بين هذين المستويين، وبين الشخصية المركزية الدالة على الرّحالة، أثناء الانتقالات المادية عبر فضاء الرحلة، أو أثناء انتقاله بين طبقات النصوص، بهدف تنظيم الرحلة في سياق محدد، إنها العلاقة الشائعة بين أنا المؤلف (Le moi d'auteur)، والأنا النصي (Le moi textuel) [31]، والتطابق بين هذه المستويات، يمكن أن نلمسه في المؤشرات الأساسية التالية[32]

أ- استعمال ضمير المتكلم، مفردا أو جمعا، سواء أثناء السرد، أو أثناء الكتابة أو النّسخ.

ب- والمتكلم لا يتردّد في التصريح، مباشرة أو ضمنيا، بهذا التطابق في معظم الأحيان، في مواقع متعددة من رحلته، حتى في حالة استعماله لضمير الغائب، مما يسمح بفسح المجال لتعدد الأصوات والصيغ والتناوب، بين ضمائر السرد.

ج– يقدّم لنا ضمير المتكلم بعض خصائص السيرة الذاتية من خلال الصوغ الذاتي للتجربة، تجربة الارتحال، مما يعني أن الذات تلعب دورا مركزيا في تنظيم الوقائع، وتأطير الأحداث، وملء الثغرات بإضافات معرفية أو بنيات حكائية صغرى، ولا شك أن هذه التجربة الذاتية، تتجسد في تقديم الموصوف عبر اللغة.

د– والرؤية للعالم في الرحلة، لا تلغي باقي الرؤيات المشاركة للرحالة زمانا ومكانا، بل قد تدفعه إلى تدارك بعض الملابسات التي لم يتمكن من سردها أثناء رحلته، مستخدما في هذا السياق رؤيات توفرت لدى رحالين سابقين.

هـ– واستعمال ضمير المتكلم بالنسبة للناسخ، يحوله إلى صوت بالمفهوم الباختيني، بجانب الأصوات الأخرى الاجتماعية والثقافية و الإيديولوجية المنتمية إلى عصرها.

بدأت رحلة "محمد علي برادة" باستعمال ضمير المتكلم المفرد، « في البداية أود أن أشير إلى أن رحلتي في الأسبوع الثاني من دجنبر 2014، إلى جهة مكناس سايس، كانت موفقة... فإنني اكتسبت صداقات إنسانية جديدة وتقوت صداقاتي القديمة... أو ما عاينته من مشاهد ومناظر طبيعية... أما الأشخاص الذين قابلتهم... وصف لي المقارنة بين الوضعية الاقتصادية والاجتماعية الثقافية... من خلال المعاينة الميدانية للمواقع التي زرتها أو مواضيع المباحثات التي تناولتها مع الأشخاص الذين صادفتهم،...».[33]

يتبين إذن أنّ كاتب الرحلة هو ساردها، فالكاتب قام برحلة استكشافية استطلاعية، شاهد المناظر وتحاور مع الناس، وكتب كل ذلك بنفسه، وسرد الأحداث بكل تفاصيلها، ووصف المناظر بعين مجهرية تلتقط كلّ ما تقع عليه، وضمير المتكلم هذا استعمله الكاتب في حالتي الكتابة والسرد، إذ يبدو أن الكاتب كان يسجل كل ما تقع عليه عيناه في اللحظة التي يشاهدها، حتى لا تضيع منه التفاصيل، فيلجأ إلى الذاكرة التي قد لا تسعفه في استرجاع كل التفاصيل.

غير أن الكاتب لا يستمر على نفس الوتيرة، وإنما يُدخل عليها نوعا من التغيير، وذلك بتحويل السارد إلى سارد جماعي، باستعمال ضمير المتكلم الجمع، وهذا ناتج عن كون الكاتب لم يسافر بمفرده، بل برفقة صديقه، "محمد العلالي"، كما أشار إلى ذلك في قوله: «في طريقنا أنا وصديقي المهندس الزراعي "محمد العلالي"، بالسيارة... تراءت لنا مساحات زراعية شاسعة على السفوح المجاورة... لاحظنا جبالا شاهقة نسبيا... قبل وصولنا إلى سبع عيون، أجرينا بمكناس بقرية الحاج قدور مباحثات مفيدة وشيقة مع طلبة ومهندسين بالمدرسة الوطنية للفلاحة... توقفنا في سبع عيون حين تناولنا في مطعم محاذي للطريق الوطنية الرابطة بين مكناس وفاس، الغذاء المكون من اللبن والكسكس بالشعير، وقشدة الحليب،..»[34]، فالكاتب يتمتّع بقدرة تواصلية كبيرة و بأخذ زمام المبادرة.

فالسارد ينوب عن صديقه الذي كان يرافقه ويحكي ما تعرض له من أحداث معه، بصوت واحد عبر معظم فقرات النّص، غير أنه يلجأ في النهاية إلى استعمال ضمير الغائب، عندما سجل خلاصة

ونتائج رحلته، والواضح من ذلك أنه دعم كتابته بكتاب كان قد قرأه لـ "محمد بريان" بعنوان "مقاربة جديدة في الجغرافية المجالية"، وكان هدفه من ذلك المقارنة بين ما شاهده وما ورد في هذا الكتاب، فكان الكتاب بمثابة شاهد على الحالة المزرية التي لا زالت بعض الفئات تعيشها، خاصة في المناطق الريفية بالمغرب، وهنا يستعمل السارد ضمير الغائب، لأنه تجاوز ذاته ليعبر عن المجتمع وعن حياة الآخرين، كقوله: « تبيّن لي أن المعطيات المتعلقة بالزراعة في جهة سايس، اتسمت عبر تاريخها الطويل حتى قبل مجيء الاستعمار الفرنسي للمغرب سنة 1912، بتمركز مساحات الثروة الزراعية لدى فئات اجتماعية قليلة»[35]، وقوله: « حيث استقروا في حوض سايس، وشكلوا ما يعرف آنذاك بالكيش، وكان البعض منهم قد اشتغل بالزراعة بعد أن استقروا هناك...». [36]

ورغم أنّ السّارد يحكي بنفسه ما عايشه من أحداث ومشاهدات، إلا أنه يحكي لنا ما رواه له أحد سكان منطقة من المناطق التي مرّ بها، وهو رجل مسن، « وصف لي المقارنة بين الوضعية الاقتصادية والاجتماعية–الثقافية، بين الأجيال السابقة التي عايشها، في عصر تميز بالندرة والفاقة، والأجيال اللاحقة التي هي الآن تعيش في العصر الراهن، عصر الوفرة، وخلص إلى أنّه إذا كانت الأجيال السابقة التي عايشها بداية القرن الماضي قد عاشت ظروفا مادية صعبة، تتجسد في ضعف التجهيزات والبنيات التحتية ومواد تنظيف الجسد والملابس... حيث أنه في حالة كان فيها المحصول الزراعي ضعيفا... خاصة في فصل الشتاء، عندما تنفذ مواردهم من حبوب الشعير أو القمح، فيلتجئون إلى من لديه فائض منها، ليقترضوا كمية معلومة مما يحتاجونه،...».[37]

وهذا يوحي بتعدد الأصوات الساردة، وأن السرد في هذه الحالة قد تجاوز الدرجة الأولى، ليظهر سرد من الدرجة الثانية، ذلك أن هذا الرجل المسن حكى للكاتب عن الحياة التي عاشها سكان تلك المنطقة في بداية القرن الماضي، وقارنها مع الوضعية الحالية للسكان، وهو سرد شفهي، بعد ذلك يسجله الكاتب ويحكيه بطريقته الخاصة، و«هكذا يسهم السفر في التوليف بين الكلام والكتابة، الفصيح واللهجي، المعياري والاستثنائي، المرئي، البلاغي والوظيفي، الموقف المخزني والتجربة الذاتية... التاريخي والجغرافي، النزعة التأليفية والتقرير المختصر،...».[38]

تميزت هذه الرحلة بالطابع التسجيلي للأحداث، كأنها شريط مسجل لكل ما مر به الكاتب من أحداث ومشاهد، مستعملا في ذلك الفعل الماضي الذي يسجل الأحداث الماضية، كقوله: « وفي المساء، كنت أشاهد السماء وهي مزركشة بالنجوم، والقمر كان على شكل هلال، بالنسبة للطقس فقد كان في النهار صحوا، والبرد قارسا والرياح تهب من جهة الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي...» [39].

اعتمدت الرحلة على الوثائقية التي « تساهم بمستوياتها المتعددة في خلق صياغة متكاملة يندمج من خلالها المرئي بالمسموع، أو المكتوب في بناء متكامل يطمح الرحالة إلى تقديمه لذاته أولا وللقارئ ثانيا».[40]

إنّ الوثائقية تعتمد على عنصر النّسج الذي يلحم أجزاء النص المتكاملة، بما فيها الأجزاء المكونة

من السماع والاطلاع، مع الرؤية البصرية المباشرة، ولا شك أن خطاب الحقيقة الذي يقود الرحالة في رحلته، يخضع للهاجس المعرفي، القضية المركزية في الرحلة، قبل تقديم حكاية الرحلة ذاتها، والهاجس المعرفي يضغط على الصياغة السردية، فتتوارى أثناء تقديم الرحالة للمرئيات، مشفوعة بملاحظاته، ومركزا على تفاصيل دون أخرى، مشكلا أثناء الكتابة، «نوعا من التوليف (Montage) بين مختلف التفاصيل، كاشفا عن عفوية ملموسة في لحظات الدهشة والاكتشاف حتى في الأماكن التي حظيت بزيارته مرات عديدة».[41]

وتحمل الوثائقية في هذه الرحلة كثافتها الحكائية المميزة التي استفادت من رواة معروفين، منحوا المروي مصداقيته التي تزيح الشك، وهو ما يشير في رحلتنا هذه إلى ما رواه الرجل المسن للكاتب عن الوضعية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمقارنة بين الأجيال السابقة واللاحقة، خاصة الظروف المادية الصعبة المتمثلة في ضعف التجهيزات والإمكانيات المادية المتاحة، وانتشار الأمراض المعدية، مقابل علاقات الاحترام والصدق والتضامن التي كانت موجودة في السابق،...[42]

ولا يتردد الرحالة في البحث عن تشبيهات ملائمة للمرئيات، خاصة المستحدثات التقنية، النابعة من مرجعيته الثقافية و البيئية، كما يظهر ذلك في العبارة التالية: « وعند فجر يوم الجمعة 14 دجنبر 2014، لاحظت منظرا عجيبا لا مثيل له، حيث كانت ألوان السماء تميل إلى اللون البرتقالي المختلط باللون الأزرق الباهت، التي تلوح في الأفق من الجهة الشرقية الشمالية للمرتفعات الجبلية، القريبة من مقدمة سلسلة جبال الريف، ويتدفق السحاب المندفع بقوة الرياح الشمالية الغربية الأطلسية، وكأننا في طائرة تحلق في أعالي السماء».[43] وهكذا يظل التشبيه أداة المفاضلة بين مرجعية الرحالة وبين مرجعية المرتحل إليهم، ويتحول الموصوف غلى صياغة موقف محدّد من الحاضر.

وإذا بحثنا في زمنية السرد، نجد أن الرحلة تحرص عادة « على التموقع داخل الزمن التاريخي (الموضوعي) ما دامت الرحلة تاريخا لفترة محددة من فترات التاريخ، تاريخ الرحالة وتاريخ المكان».[44]

ويحرص الرحالة على ضبط عناصر هذه الرزنامة، بالتركيز على انتقالاته في الزمان والمكان، باليوم و الدقيقة والساعة، متابعا انطواء صفحات فصول الأيام والأعوام[45]، وهذا ما حرص عليه الكاتب، إذ يذكر لنا زمن الرحلة في قوله: «في البداية أود أن أشير إلى أن رحلتي في الأسبوع الثاني من دجنبر 2014، إلى جهة مكناس سايس، كانت موفقة... وعند فجر يوم الجمعة 14 دجنبر 2014، لاحظت منظرا عجيبا لا مثيل له»[46]، وحتى فرضا لو أنه لم يذكر لنا زمن الرحلة، فإننا نستشف ذلك من خلال النص، إذ يبدو واضحا أن الرحلة تمت في فصل الشتاء، وما يمكن أن يتبعه من جو بارد وأحوال الطقس في هذا الفصل، « بالنسبة للطقس فقد كان في النهار صحوا، والبرد قارس والرياح تهب من جهة الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي في الصباح الباكر، وفي المساء يسود ركود في حركة الرياح».[47]

هكذا يحرص الكاتب على ربط السرد بالزمن، والإشارة إلى كل ما يربط هذا المسرد بالزمن، مما يعني أنه يحرص على تسجيل الأحداث بدقة متناهية، كما حدثت في الواقع المادي، « فالرحلة –شأنها

شـــأن الســـيرة الذاتـــية– حـــكي اســـترجاعي لشـخص حقيـــقي عـن عالمـــه الخـــاص وبالـــتالي عـن تاريـخه الشخصي».[48]

ومرة أخرى، تبرز التعاقبية من خلال إعادة صياغة هذا العالم عبر محطات دالة، يتابع فيها الرحالة تعاقب الليل و النهار، وتعاقب الفصول والأيام، بموازاة تعاقب الصور والفضاءات والأحداث والموضوعات في سياق المسار العام للرحلة، وهذا ما يتضح في الفقرة السابقة المأخوذة من نص الرحلة، حيث يرصد الكاتب تعاقب حالة الطقس في الصباح والمساء، وذكر اليوم الذي وقع فيه ذلك، وهو يوم الجمعة.

ولو عدنا إلى تاريخ الرحلة المغربية، نجد أنها لم تستطع التخلص من الجانب التاريخي الذي تداخل مع اليومي المتزامن معه، وهو في الوقت نفسه، استدعاء للماضي لإضاءة ما يجب إضاءته، « الرّحلة إذن سيرة (تحدثنا عن الحياة الاجتماعية وتاريخ الحياة الاجتماعية)» [49] ، وفي أحيان كثيرة كان الرحالة يلتقي مع مؤرخي عصره في قواسم مشتركة، ارتبطت بالهاجس التاريخي المسيطر على مثقفي هذه المرحلة أو نخبتها، وبالرغم من ضغط التاريخ على كل الرحالة، فإن الرّحلة تظل متسمة بخاصية ملموسة تميزها عن النصوص المتزامنة معها، وتدعم من ناحية ثانية، بنيتها المرنة أو المنفتحة على حركة المد والجزر في الذات والموضوع، إنها خصيصة الصياغة السردية للحياة اليومية، و بفضل هذه الصياغة، ابتعد السرد في الرحلة عن سطوة التاريخ، وانخرط في رحاب اليومي، دون أن تحدث القطيعة النهائية بين التاريخ و الحياة اليومية. [50]

والكاتب في رحلته هذه يمارس التوازن بين لحظات التاريخ وبين لحظات المشاهدات اليومية المختلفة، وذلك من خلال رصد الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمناطق التي مر بها، ومقارنتها بالماضي الذي يتميز بالندرة والفاقة، مع الحاضر الذي يتميز بالوفرة. وقدّم كخلاصة لرحلته تاريخ المغرب عبر مراحل مختلفة تعود إلى ما قبل دخول الاستعمار الفرنسي إلى المغرب سنة 1912، حيث كانت المساحات الزراعية تتمركز في أيدي فئات اجتماعية قليلة على حساب الأغلبية من الفلاحين الصغار، وتتبع هذه المراحل إلى غاية حصول المغرب على الاستقلال، إلى أن أصبح منذ سنة 1966 جزءا كبيرا من الأراضي في ملكية الدولة، وتتبع بعد ذلك في فترات لاحقة، مستعينا بمراجع أساسية تؤكد ما يذهب إليه.

إنّ الكاتب "محمد علي برادة" في رحلته قدم العنصر التاريخي في الرحلة، وتوفر لديه السند المحقق لأبعاد عديدة، وكان له سندان، سند مباشر عن طريق نقل الكلام من أفواه من صادفهم الرحالة في طريقه، وسند غير مباشر ارتبط بالمراجع التي استقى منها مادته التاريخية.

نصل في الأخير إلى أن هذه الرحلة هي نص سردي، يعكس حركة التذكر، من خلال لحظات « الترهين السردي»[51]، الذي يقتضي القول في الحاضر أثناء السرد، من خلال الحفاظ على مستويات الكلام في الماضي أثناء قيام الرحالة برحلته، ودمجه بمستويات المكتوب في الحاضر، خاصة أن الكاتب حرص

أثناء رحلته على تسجيل المرئيات في مذكرات تهدف إلى الحفاظ على المكتوب.

نستنتج أن السرد عنصر مهم في نص الرحلة الذي لا يمتلك شرعيته الأدبية إلا عن طريق السرد، ولا يمكن لأية رحلة حمل هويتها الأجناسية إلا عن طريق السارد الذي ينسج حكايته من عناصر المكان والوجدان، والسارد في الرحلة، كما هو الشأن في السيرة الذاتية، يعيش التجربة مرتين: مرة أثناء الرحلة والمرة الثانية أثناء السرد، في المرة الأولى هناك ارتباط بالمكان، وفي المستوى الثاني أثناء السرد. تظهر مجموعة من العلامات تؤطر في المكان، وتعيد صياغته بطريقة أخرى، أو برحلة جديدة تتجسد في الكلمات، فالرحالة إذن سارد، والرحلة سرد، فالرحلة تمكن من رؤية حقيقة العالم والأشياء التي لم يحظ برؤيتها المسرود له، ولم يتمكن من رؤيتها إلا عن طريق السرد، والمتلقي يتحصل على معرفة مقدمة من خلال منظور السارد.

2-2- تقنية الوصف:

يتلازم في الرّحلة مكونان أساسيان، هما: الوصف والسرد، وإذا كانت الرحلة فنا بصريا يهدف إلى تقديم الموصوف في مختلف مظاهره، فإن وسيلة الرحالة في سياق هذا التقديم، تقوم على استنبات محطات الوصف عبر انتقالات الرحالة في المكان، وكل محطة من هذه المحطات الوصفية تمثل مستوى من مستويات الوصف ذاته، مع العلم أنها تتوفر في العديد من النصوص السردية.

والوصف عادة يوقف حركة السرد، والرحلة في جوهرها هي مجموعة مشاهد وصفية، كتبها الرحالة، بحكم انتقالاته في أرجاء المكان، ولهذا الوصف دور تأطيري، يمارس من خلاله اقتطاع ما يرغب في وصفه، وعملية التأطير أو الاقتطاع هذه، تتميز بحركيتها في معظم الأحيان بواسطة أفعال الدخول والخروج المعبر عنها بضمير المتكلم مفردا أو جمعا، إنّه وصف مسرود، يتميز بتعاقب حركة السارد داخل المشهد المؤطر. [52]

ولا شك أن طبيعة الوصف تقتضي استعمال وسائل أخرى تنتمي إلى حقل السرد، ولكنها تلعب دورا مزدوجا يجمع بين الوصف والسرد، ما دامت الرحلة امتدادا زمانيا ومكانيا في آن واحد. [53]

والملاحظ أن الوصف في هذه الرحلة جاء ممزوجا بالسرد، يعني أنه ليس وصفا خالصا، ومن أمثلة ذلك، قول الكاتب: «وعند قرية سيدي عبد الله احساين، لاحظنا جبالا شاهقة نسبيا، تعلو قمتها بحوالي كيلومتر عن سطح البحر، مكونة أساسا من طبقتين، طبقة من الصخور الصلصالية، تعلوها طبقة صخور كلسية»[54]، وقوله: « أمّا البنابات، فهي في غالب الأحيان عبارة عن مساكن من الآجور الطيني أو الطوب الإسمنتي، أو ما يعرف عند أهل المرتفعات الجبلية بسيدي عبد الله احساين بالتابوت، أي خليط من الطين والتبن».[55]

فوجود الأفعال في هذه العبارات دليل على وجود السرد، أي أن الوصف والسرد في هذه الرحلة وردا متشابكين، بحيث يصعب أن نفصل الواحد منهما عن الآخر.

تمارس عين الرحالة أثناء الرحلة، التقاط المرئيات المختلفة، وإذا كانت هذه الأخيرة لا تصلنا إلا عن

طريق عين الرحالة، فإن طبيعة الوصف في الرحلة تفرض المرور بعيون أخرى شكلت بدورها شبكة بصرية متكاملة مع القناة المركزية المجسدة في عين الرحالة، المرجعية البصرية الأساسية في الرحلة، وتنقسم هذه الشبكة البصرية إلى قسمين كبيرين: شبكة الرحالة ومن ارتبط بهم أثناء الرحلة، من مرافقين ومساعدين، سفرا وانتماء وأهدافا مختلفة، ثم تأتي شبكة المرتحل إليهم الخاضعة بدورها لعناصر عديدة من الاختلاف في الرؤية و الهوية أو العلاقة مع الزائر الرحالة. [56]

هذه العين هي أداة السارد، لا ترى إلا ما يراه، ومن أمثلة ذلك في النص قول الكاتب: « تراءت لنا مساحات زراعية شاسعة على السفوح المجاورة... لاحظنا جبالا شاهقة نسبيا... كنت أشاهد السماء وهي مزركشة بالنّجوم... وعند فجر يوم الجمعة 14 دجنبر 2014 لاحظت منظرا عجيبا لا مثيل له».[57]

قدّم الكاتب جملة من المرئيات من خلال عيون نصية، ومن ثم يتحول نص الرحلة إلى طبقات من الرؤية البصرية، كما هو واضح في النص.

يستند الوصف في الرحلة إلى البحث الدائم، من بدايتها إلى نهايتها في الاسم وامتداداته، والتسمية تدور أساسا حول ميادين اشتغال الوصف الشائعة، أي وصف الأشياء والأماكن والأشخاص. كما أن البحث في المسميات المكانية في Topos الذي يحقق إعادة صياغة تلك المسميات بأسماء دالة، وهو ما يتعلق بكتابة أسماء الأماكن من جديد، عن طريق معجم الرّحالة الذي يعيد صياغة المكان. [58]

وأسماء الأماكن هذه نجدها في الرحلة بشكل مكثف، من مثل «نلاحظ كثرة تسميات قرى تبتدئ باسم العين، مثل سبع عيون، عين سيدي عبد الله احساين، عين بوفكران، عين امجاط،...الخ».[59]

ويغلب على هذه الرحلة، الوصف المباشر في أغلب مقاطعها، نظرا لأن الرحلة في حد ذاتها أداة لنقل الموصوف، وطبيعة هذا الوصف تقوم على محاكاة المرئي قبل الحكي عنه، ذلك أن الكاتب كان يهدف إلى تقديم الموصوف كما رآه، وتقديمه يحتاج إلى استخدام الوسائل المختلفة التي تسمح بتشخيصه أو تجسيده من خلال التناظر بين صورة و أخرى، وهذا ما يوضح الوصف الذي قدمه الكاتب من جهة من خلال ما التقطته عيناه، ومن جهة أخرى من خلال ما وصفه أحد سكان المنطقة الذي هو رجل مسن، مقارنا بين وضع المنطقة في الماضي ووضعها في الحاضر.

وهكذا يصبح الوصف في هذه الرحلة حكاية موازية للمسرود، ما دام الوصف بناء لعالم جديد تتحرك فيه الأشياء والأمكنة المنظمة تنظيما جديدا، مستفيدة من إمكانيات الانتقال سرديا، وخالقة من جهة أخرى لنظامه الخاص القائم على الرصد والتراكم وبناء عالم الأشياء والأمكنة والشواهد الدالة.

الوصف في الرحلة إذن، ليس أداة لعرض العالم فقط، بل هو العالم ذاته، أي أن الوصف يصنع بواسطة السرد، وبعبارة أخرى لا يمكن الفصل بين الأداة والموصوف، بل إن الرحالة أثناء قيامه بالوصف يمارس بناء العالم بالعالم ذاته. [60]

كما اعتمدت هذه الرّحلة على الوصف التاريخي، فالكاتب لم يكتف بتقديم المرئيات في زمنها الحاضر، بل إن طبيعة الموصوفات المجهولة لدى الكاتب والقارئ أيضا، دفعت بالكاتب إلى تقديم

الموصوفات من خلال المصدر التاريخي، سواء شفهيا أو مكتوبا، وهذا ما نجده في الرحلة عندما ذكر الكاتب ما حكاه له الرجل المسن مقارنا بين وضعية الماضي والوضعية الحالية، وهذا مصدر شفهي، بينما المصدر المكتوب يتمثل في الكتاب الذي استعان به الكاتب، لتأكيد ما ذهب إليه، فهذه المصادر التاريخية سواء كانت شفهية أو كتابية، فهي تضيء الموصوف، وتقدمه من زوايا متعددة، عوض الاقتصار على زاوية الرؤية الوحيدة للرحالة، وبهذا يساعد المصدر التاريخي، بتعدد زواياه، على فهم المكان وأبعاده.

فالكاتب وصف جوانب مختلفة في منطقة "مكناس سايس" مما شاهده أو انفعل به، وقد ظفر بمتعة في القرى العديدة التي زارها، واستفاد من اطلاعه على جوانب مختلفة في تلك الأرياف، حفلت بكثير من الأفكار المختلفة والمعلومات العديدة عن المناطق التي مر بها. وقد بدا عنصر الاكتشاف واضحا في هذه الرحلة، حيث ظفر الكاتب بمتعة الطبيعة ذات الرونق الساحر، كما ظفر بمتعة اكتشاف الكثير من الأمور في المناطق التي زارها.

2-3- تقنية الحوار:

لا يكتفي السارد في رحلته باستعمال العين في نقل المرئيات، بل إنه يستعمل أيضا الحواس الأخرى، فضلا عن وسائط أسلوبية للتعامل مع عالم الرّحلة. [61]

و يتم تقديم الحوار في الرحلة عبر الوسائل التالية[62]

أ- عن طريق السماع.

ب- عن طريق شخصية محددة بخصائص معينة لا تتجاوز الكلام.

ب1- عن طريق صيغ البناء للمجهول.

ب2- عن طريق صيغ البناء للمعلوم.

ج- يتم الحوار عن طريق السند، في سياق النزعة التعليمية خاصة.

د- عن طريق فتح حوار، مباشر أو غير مباشر، مع محكيات عديدة، تتوزع عبر مناطق السرد وامتداداته.

يظهر هذا الحوار في المباحثات التي أجراها الكاتب بقرية "الحاج قدور" بمكناس، كما يظهر ذلك في الفقرة التالية: « قبل وصولنا إلى سبع عيون، أجرينا بمكناس، بقرية الحاج قدور، مباحثات مفيدة وشيقة مع طلبة ومهندسين بالمدرسة الوطنية للفلاحة، تناولنا مواضيع تهم آفاق التعاون المشترك بين مختلف الأفواج المتعاقبة السابقة، والأفواج اللاحقة، قصد نقل الخبرات والتجارب من الأولى إلى الثانية، من خلال لقاءات وجلسات مفتوحة بينهما، في إطار الأنشطة الثقافية لجمعية الطلبة المهندسين والنوادي التابعة لها بتلك المدرسة».[63]

وظّف الكاتب في رحلته هذه الحوار الهادف الذي جمع بين المتعة والفائدة في مباحثات شيقة مع الطلبة المهندسين بالمدرسة الوطنية للفلاحة، تم من خلال ذلك اقتراح مواضيع تسعى للتعاون المشترك بين مختلف الأفواج المتعاقبة السابقة منها واللاحقة، من أجل تبادل الخبرات.

هذا، بالإضافة إلى الحوار الذي أجراه مع الرجل المسن، مقارنا بين الوضعية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لسكان المنطقة للأجيال السابقة واللاحقة، مبينا دور التضامن والتآزر والصدق والاحترام عند الأجيال السابقة، بالمقابل تفتقد الأجيال اللاحقة إلى مثل هذه الصفات الحميدة.

هذا الحوار يتكامل مع الصيغة السردية في الرّحلة، بهدف استكمال عناصر الصورة المقدمة عن طريق التنويع، وهو حوار يدل على ما يجري في هذه المناطق من أفكار وقضايا.

الخاتمة

وخلاصة القول، إن هذه الرّحلة عالجت المكونات السردية بمختلف مستوياتها، دون إهمال الرحلة ومضامينها التي برزت من خلال الصياغة السردية، غير أنّ الرحلة تميزت عن النص السردي بملامحها الخاصة أثناء توظيف هذه المكونات بأسلوبها الخاص، أعادت فيه صياغة المرئيات بطريقة خاصة، وقد امتلك النص أدبيته الخاصة التي توزعت بين الشفهي والمكتوب، الوصفي والسردي،... مع تحقيقه لخصائص واقعية عامة ارتكزت على الوصف، مع بروز مؤشرات نوعية على مستوى الكتابة في الصياغة السردية، ممّا يدل على أن صاحب الرحلة من الكُتّاب الموهوبين الذين يلتقطون أدّق التفاصيل بعين مجهرية تلتقط العناصر المهمة، مع حسن اختيار ما يناسب لتسجيله دون غيره.

تتكامل في الرّحلة جملة من العناصر التي تجمع بين الرّغبة في الاستكشاف واستطلاع الحقائق والأحوال والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والاستجمام واكتساب المعارف المختلفة، أحسن الكاتب انتقاء عنوان شامل لرحلته، تضمّن الجنس الأدبي الذي يكتب فيه مع اختيار الألفاظ المناسبة والمعبرة.

يطغى على الرّحلة استعمال ضمير المتكلم، فالكاتب يتولى الأمور بنفسه، فهو كاتب الرّحلة وساردها وهو من سافر وشاهد المناظر وتحاور مع النّاس، غير أنّه يلجأ في النّهاية إلى استعمال ضمير الغائب عندما سجّل خلاصة النّتائج التي استقاها من كتاب في الموضوع ليدعم كلامه من الواقع، وليعطي الأحداث طابعا توثيقيا، خاصة لما يلجأ إلى استشارة الناس الذين التقاهم في سفرهم لإعطاء وجهة نظرهم.

ومن جهة أخرى مزج الكاتب بين السّرد والوصف في حالات عدّة، ليتخلّص أحيانا من سطوة السّرد ويعطي الأحداث طابعا واقعيا، وقد وصف المرئيات بعيون نصية تلتقط أدق التّفاصيل، ممّا شكّل طبقات متراكمة من الرّؤية البصرية.

ولم يكتف الكاتب باستعمال العين في نقل المرئيات، بل استعمل أيضا الحواس الأخرى وجملة من الوسائط الأسلوبية للتعامل مع عالمه، ولذلك لجأ إلى توظيف الحوار الذي يقطع به مؤقتا سير العمل السردي، عن طريق الكلام والسّماع وصيغ مختلفة، وكان الحوار هادفا يجمع بين المتعة والفائدة في مباحثات وتساؤلات شيّقة ومثيرة.

الهوامش

1 - عبد الرحيم مؤدِّن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دراسات في الأدب الجغرافي، الأهلية للنشر و التوزيع، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 2006، ص9.

2- جبور الدويهي، "الرحلة و كتب الرحلات الأوروبية إلى الشرق حتى نهاية القرن ال18"، مجلة الفكر العربي، ع 23، أفريل/ يونيو 1983، ص 58.

3- عبد الرحيم مؤدِّن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ص ص:23-24.

4- Oswald. Ducrot et Tezvetan Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, coll, points, édition du seuil, paris, 1972, p 139.

5- عبد الرحيم مؤدِّن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ص 24.

6- ينظر: المرجع نفسه، ص ص: 24-25.

7- عبد الفتاح كيليطو، المقامات (السرد و الأنساق الثقافية)، ترجمة: عبد الكريم الشرقاوي، دار توبقال، 1993، ص 721.

8- عبد الرّحيم مؤدِّن، الرّحلة المغربية في القرن التاسع عشر،مستويات السرد، ص ص: 11-12.

9- ينظر: محمد علي برادة، لمحة عن منطقة مكناس سايس، تلقيتها منه عن طريق المراسلة، بتاريخ: 2015/07/11.

10- عمر بن قينة، الشكل و الصورة في الرحلة الجزائرية الحديثة، شركة دار الأمة للطباعة و الترجمة و النشر و التوزيع، برج الكيفان، الجزائر، ط1، ماي 1995، ص .39

11- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

12- محمّد علي برادة، ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس، مخطوط.

13 - المصدر نفسه.

14 - المصدر نفسه.

15- المصدر نفسه.

16- ينظر: المصدر نفسه.

17- المصدر نفسه.

18- المصدر نفسه.

19- ينظر: جميل حمداوي، "السيميوطيقا و العنونة"، مجلة عالم الفكر، وزارة الثقافة، الكويت، العدد: 3، المجلد: 25، 1997م، ص 96.

20- ينظر: محمد مفتاح، دينامية النص، تنظير و إنجاز المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1990م، ص 72.

21- ينظر: عدنان حسين قاسم، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي، دار العربية للنشر و التوزيع، مصر، ط، 2000م، ص 291.

22- ينظر: محمد الهادي المطوي، شعرية عنوان كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق، مجلة عالم الفكر

،المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، المجلد: 28، 1999، ص 275.

23– محمّد علي برادة، ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس، مخطوط.

24– حسين شيخ عثمان، حق التلاوة، مكتبة المنار، الأردن، ط1، 1990م، ص 106.

25– محمود السعران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، القاهرة، مصر، ط2، 1992، ص 127.

26– محمد عويس، العنوان في الأدب العربي، النشأة و التطور، مكتبة الأنجلو مصرية، ط1، 1988م، ص ص: 25–26.

27– سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، هيئة الكتاب، مصر، ط1، 1975، ص 22.

28–voir: Léo Hoek, La Marque tu titre, Dispositif sémiotique d'une pratique textuelle, 1981, p10.

29– بسام قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ط1، 2001، ص 101.

30– ينظر: عبد الرّحيم مُوَدِّن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ص 50.

31– Voir: Jean Thibaudeau: Le roman autobiographique, théorie d'ensemble, coll, point, ed.seuil, 1968, p 202.

32– ينظر: عبد الرّحيم موَدِّن، الرحلة المغربية في القرنالتاسع عشر، مستويات السرد، ص ص: 50–53.

33– محمّد علي برادة، ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس، مخطوط.

34– المصدر نفسه.

35– المصدر نفسه.

36– المصدر نفسه.

37– المصدر نفسه.

38– الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا و بحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، وزارة الأوقاف، 1967، ص 256.

39– محمّد علي برادة، ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس، مخطوط.

40– عبد الرّحيم موَدِّن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ص 42.

41– المرجع نفسه، ص 43، نقلا عن: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ترتيب و تنظيم و نشر: مجموعة من المستشرقين، دي فرنسك، و.ج2 ط، ليدن، 1943، ص 233.

42– ينظر: محمّد علي برادة، ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس، مخطوط.

43– المصدر نفسه.

44– عبد الرّحيم موَدِّن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ص 175.

45– ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

46– محمّد علي برادة، ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس، مخطوط.

47– المصدر نفسه.

48– عبد الرّحيم مؤدِّن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ص 176، نقلا عن: بنسعيد السلاوي، (اليوميات)، م.م ورقة 5.

49– جماعة من المؤلفين، إشكاليات المنهاج في الفكر العربي و العلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، ط1، 1987م، ص 85.

50– عبد الرّحيم مؤدِّن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ص ص: 187–188.

51– المرجع نفسه، ص 203.

52– المرجع نفسه، ص 69.

53– المرجع نفسه، ص 70.

54– محمّد علي برادة، ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس، مخطوط.

55– المصدر نفسه.

56– ينظر: عبد الرّحيم مؤدِّن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ص 271.

57– محمّد علي برادة، ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس، مخطوط.

58– ينظر: عبد الرّحيم مؤدِّن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ص 279.

59– محمّد علي برادة، ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس، مخطوط.

60– ينظر: عبد الرّحيم مؤدِّن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ص ص: 287–288.

61– ينظر: المرجع نفسه، ص 224.

62– ينظر: المرجع نفسه، ص ص: 224–226.

63– محمّد علي برادة، ارتسامات رحلة عابرة إلى جهة مكناس سايس، مخطوط.